ومیض جمال عمر نظمي رائد الفكر السياسي المعتدل في العراق 3

تداعيات إنفصال صدام عن الأكراد برزت في جهل الشباب باللغة العربية

عادل تقي عبد البلداوي
بغداد

المقدمة

قبل اكثر من ربع قرن تقريبا، وتحديداً في شهر تشرين الثاني عام 1990، تعرفت إلى الاستاذ الدكتور وميض جمال عمر نظمي في منزل استاذي المرحوم الدكتور عبد الله سلوم السامرائي، اذ كنت في زيارة له، وقد حضر وميض بدون علم مسبق، وبدأ يتحدث بألم كبير وحزن عميق عن دخول العراق الكويت في آب عام 1990، وقد كان يسأل بمرارة، ما الحل ؟ ثم استدرك، وسأل استاذي السامرائي عني، فطمأنه استاذي ان يأخذ حريته في الحديث دون أي حرج وتردد!.

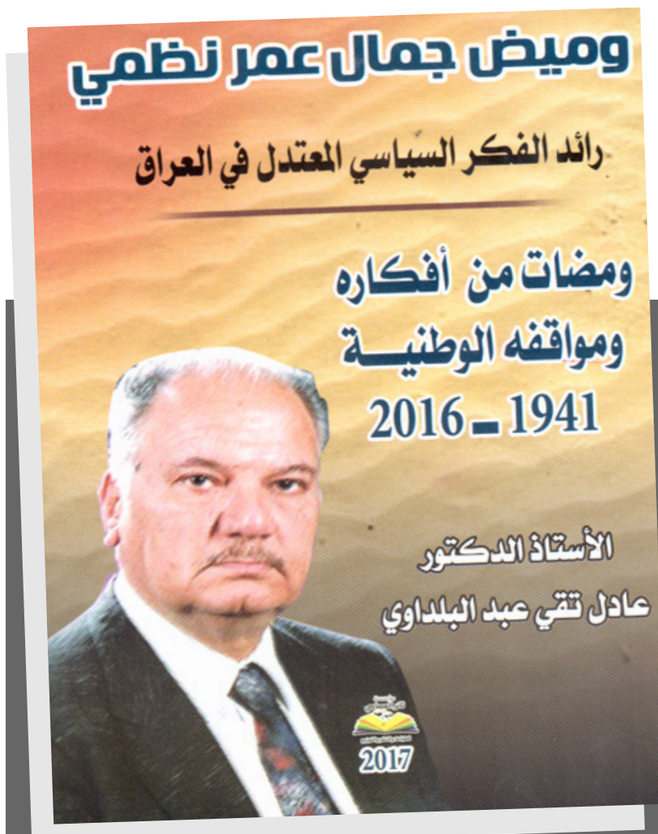

غلاف الكتاب

كان وميض يشدد دوماً في مجالسه الخاصة على ان المجتمع العراقي مجتمع غير طائفي، ويرفض الطائفية سلوكاً وتصرفاً، وقد عزز كلامه بأدلة وشواهد تاريخية، ولاسيما فيما يتعلق بالامتدادات العشائرية في العراق، ففي العشيرة الواحدة هناك شيعة وسنة، ناهيك عن المصاهرات الاجتماعية فيما بينهم، ونبه وميض الى نقطة مهمة، وهي ان السنة في العراق يكرهون كل من يبغض علياً واولاده (عليهم السلام)، بدليل لو اجري مسح ميداني لعوائل السنة لم نجد احداً منها قد سمى اولاده "معاوية" و "يزيد" كونهما قد قاتلا عليا وولديه الحسن والحسين (عليهم السلام)، بل اكثر من ذلك، ان اغلب العوائل السنية في العراق، عندما تودع اولادها للسفر تقول لهم" الله وعلي وياك" ! اسوة بالعوائل الشيعية. ولم يكتف وميض بذلك، فقد رأى ان "الكرد" بامكانهم ان يؤدوا دوراً كبيراً في وأد الطائفية كونهم يمثلون مكوناً اجتماعياً متنوعاً، يضم شيعة وسنة ايضاً، لذا يمكن ان يكونوا بيضة "الميزان" في هذا المضمار. مع العلم، ان وميضاً كان يفرح فرحاً كبيراً، عندما كان يسمع هذا الشعار الذي كان العراقيون يرفعونه في المظاهرات: " اخوان سنة وشيعة هذا البلد منبيعة".

ثمة حقيقة تاريخية، ان وميضاً لا يمانع في قيام نظام اسلامي او قومي او ماركسي في العراق. عن هذا الموضوع، ذكر وميض مانصه:

" انا لا امانع على الاطلاق في ان اعيش في مجتمع يقوده الاسلاميون او الماركسيون اذا حافظوا على كرامتي وحريتي وحقي في ابداء الرأي".

مما سبق يدو واضحا، ان الافكار التي كان يتبناها وميض، سواء في كتبه أم بحوثه أم تعقيباته، كان يعتمد في رؤيتها على " المنهج القومي – الاجتماعي او القومي- الطبقي) كون " الصراع الطبقي" حافزاً "للعامل القومي"().

بتعبير أدق، ان وميضاً كان يستخدم المنهج القومي في تحليل احداث التاريخ، لانه حسب وجهة نظره، اقرب الى الواقع من المنهج الماركسي القائم على المادية التاريخية()، التي تساوي "الحقيقة المطلقة". لنتابع سوية ماذا قال وميض بهذا الشأن :

" وكاتب هذه الاسطر لايؤمن بان المادية التاريخية تساوي الحقيقة المطلقة، فالاطلاق من صفات الله وحده، وكل معرفة هي بالضرورة نسبية وليست مطلقة، وعندما نغادر هذه البديهية نسقط في شرك الاقصاء، واحتكار المعرفة، وتخوين الرأي الآخر، وبالتالي في الشمولية والاستبداد وفي نهاية الامر السقوط المريع، ولكن النسبية هي ايضا نسبية، وهذا يشجعني للقول بان النسبية المادية التاريخية ان استخدمت بشكل صحيح وعلمية جادة وحرص على الحقيقة ونأت بنفسها عن التبريرية المبتذلة، فتكون اقرب المناهج الفكرية الى الحقيقة، او فلنقل الى الوصول الى اقرب معرفة صحيحة لرصد حركة الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي".

موقف وميض جمال عمر نظمي من القضية الكردية في العراق:

احتلت القضية الكردية حيزاً كبيراً في فكر استاذنا وميض، فقد كان يدعو باستمرار إلى ان حل القضية الكردية لايتم عن طريق الاجنبي، بل يتم من خلال تعزيز الاخوة العربية الكردية. فقد كتب مقالا وهو في إوج شبابه، رحب فيه بقرار الحكومة العراقية بايقاف القتال في كردستان العراق عام 1964، لان الجميع " يدركون تماماً النتائج السلبية والاثار الضارة باستمرار لمثل هذا الاقتتال بين الاشقاء "، فانها حتماً تؤدي الى " اضعاف قوى الشعب الوطنية وزج كل القوى الخيرة والنبيلة في حومة صراعات جانبية لن تجدي فتيلاً الا في غرس بذور الكراهية والحقد بين الاشقاء "، و "إنهاء موارد البلاد"، طبقا لما جاء في مقاله المعنون " الاخوة العربية الكردية" الذي ختمه بهذه الكلمات المعبرة:

" ان شعار الاخوة العربية الكردية له اثر كبير على مجمل الكفاح التقدمي للجماهير في العراق... وجعل قضية الحقوق القومية للاكراد قضية النضال الثوري العربي التي لابد من الاقرار بالحقوق القومية والديمقراطية للاكراد ... عاشت وحدة النضال العربي الكردي من اجل حماية جمهوريتنا ودعم انجازها التقدمي نحو الوحدة العربية والتحول الاشتراكي والحقوق القومية والديمقراطية للشعب الكردي الشقيق".

قضية كردية

ظل وميض ينادي بحماس كبير بضرورة حل القضية الكردية. لان عدم حلها يخدم اعداء العروبة قبل اعداء الكرد، الا انه مما يؤسف عليه حقا ان نداءه لم يجد له آذاناً صاغية، الامر الذي دفعه أن ينفعل بشكل كبير في مناقشته لرسالتي ماجستير عام 1993 واطروحتي للدكتوراه عام 1998، والذي كان عضواً في كليهما، إذ شدد على ان الحكومتي السابقة (ويقصد بها حكومتي عبد السلام واخيه عبد الرحمن محمد عارف وحكومة احمد حسن البكر) كانت احرص بكثير من الوقت الحاضر (كان الحديث في عامي 1993 و 1998)، لان هذه الحكومة يقصد بها (حكومة صدام حسين) هي التي انفصلت عن الكرد عام 1990، وليس الكرد هم الذين انفصلوا، وهذا ما سيترك اثاراً خطيرة على مستقبل الاخوة العربية الكردية. وقد حصل ذلك بالفعل، فان الجيل الذي ولد في كردستان عام 1990 لم يعرف اللغة العربية بتاتاً، وهذا ما ولد صعوبة كبيرة لدى السواح العرب في كردستان في التفاهم مع هذا الجيل، مما ادى الى افساد متعة السفر على اقل تقدير!.

ينبغي ان نشير هنا الى، ان شخصيات وطنية، كان من ضمنها استاذنا الدكتور وميض قد وجهوا نداءً الى الرأي العام العراقي عام 1992 دعَوا فيه إلى ان الحل الوحيد للقضية الكردية هو الحوار لان ذلك " سيضع حداً لافتعال الشقاق وسيعزز الحكم الذاتي لكردستان العراق، ويفتح الطريق امام تحولات ديمقراطية في كافة ارجاء العراق". وختم الموقعون نداءهم بهذه الكلمات:

"فلتتضافر كل الجهود الخيرة من اجل كردستان مركزا للخير والانتاج والاشعاع الفكري لكل اكراد العالم وجزءاً غالياً من العراق الموحد والديمقراطي والصامد ضد كل المؤامرات"() .

ظل وميض يتابع القضية الكردية حتى بعد الاحتلال الاميركي للعراق عام 2003، فقد كتب مقالا عنوانه " شكراً مام جلال الطالباني..ولكن"، دعا فيه الكرد إلى ان "لايمشون في الارض مرحاً" في ظل الاحتلال الاميركي، فالاحتلال لم يكن من اجل سواد عيون العراقيين بل هو احتلال "مشؤوم" لايريد الخير لكل العراقيين عرباً وكرداً وتركماناً واقليات قومية اخرى ومسلمين شيعة وسنة ومسيحيين وارمن وصابئة واقليات دينية اخرى. مع العلم، ان هذا المقال كان ردأعلى تصريح للطالباني عبر فيه عن فرحته بالدور الذي احتله الكرد بعد الاحتلال الاميركي، وقد ختم وميض مقاله بهذا القول المعبر :

" وسلاماً لشعب الكرد الشقيق ولكردستان الشامخة العظيمة ... عاشت الوحدة الوطنية والطوعية لكل ابناء العراق الصامد العظيم".

ينبغي ان نشير هنا الى، ان وميضاً لم يعترض على "الفيدرالية" من حيث الجوهر، فهي منظومة سياسية متكاملة، اذا احسن تطبيقها بالشكل الصحيح وبالوجه المطلوب، ولكن وميضاً كان يعترض على تطبيقها على اساس "قومي" او "مذهبي" لان ذلك بداية لتقسيم العراق والقضاء على هويته الوطنية تماماً . بتعبير ادق، اذا كانت الفيدرالية تعني تفكيكاً لـ" مركزية" السلطة التنفيذية المفرطة وتوزيع الصلاحيات على الاقاليم من اجل بناء " دولة المؤسسات "، وليس " بناء دولة الافراد والطوائف" والمكونات، فان وميضاً معها ذلك جملة وتفصيلاً.

موقف وميض جمال عمر من الحرب العراقية – الايرانية(1980–1988):

كان وميض من اشد المعترضين على نشوب الحرب بين العراق وايران عام 1980، لان هذه الحرب، حسب وجهة نظره، هي في خدمة الكيان الصهيوني، لان الاخير كان يخشى كثيراً من قوتي الجيشين العراقي والايراني، واحتمال تحالفهما في القضاء على (اسرائيل) نهائياً، لذا دفعت الاخيرة حليفها الولايات المتحدة الاميركية لزج الجيشين (العراقي والايراني) في معركة لاستنزاف قدرة البلدين بشريا وعسكريا ومادياً واقتصادياً، وهذا ما حصل بالفعل، فقد انهت الحرب التي دامت 8 سنوات دون ان يحصل كلا الطرفين على ما كان يتمناه، فالعراق كان يشدد في بداية الحرب على كون الخليج "عربياً"، في حين، كانت ايران تشدد على كون الخليج "فارسيا"، وقد انتهت الحرب، والخليج لم يصبح "عربيا ولا فارسيا" بل "خليجاً امريكياً" طبقا لما قاله وميض جمال عمر نظمي.

لا ابالغ القول اذا قلت، ان من اكثر الموضوعات التي شغلت فكر وميض بعد العام 2003، موضوع "الطائفية" الذي كان، على ما يبدو، يقلقه كثيراً منذ وقت مبكر، لذا بادر الى كتابة موضوع عن " شيعة العراق" عام 1982، وقد طلب من المرحوم الدكتور سعدون حمادي ان يكتب عن "دور السنة في ثورة العشرين"، وذلك من اجل تعزيز اللحمة الوطنية بين الطائفتين الشيعية والسنية، ولا يستطيع احد ان يمزقها! الا ان حمادي لم يكتب، اغلب الظن، لانشغاله بالعمل الرسمي يومذاك.

على اية حال، بذل وميض كل ما بوسعه من اجل ان يؤكد ان الطائفية التي حدثت في العراق عام 2006، كانت مرتبطة بالبنية السياسية ولست بالبنية الاجتماعية، بدليل ان التعددية المذهبية في العراق "لم تكن عائقاً امام الوحدة الوطنية والقومية" خلال احداث ثورة 1920 في العراق .

وينطبق الامر نفسه، على تجربة الاتحاد السوفيتي، فعلى الرغم من دعمه لحركات التحرر في العالم، يرى وميض انه ظل هو الاخر نظام الحزب الواحد، الامر الذي ادى الى اختفاء الظاهرة الناصرية، وسقوط الاتحاد السوفيتي عام 1990 .

ومن اجل الاستفادة من اخطاء هاتين التجربتين، شدّد وميض على ضرورة دراسة اسباب تدهور الفكر القومي العربي بعمق كبير، وبنقد موضوعي رصين، فقد رأى وميض ان اسباب تدهور هذا الفكر ووصول الامة العربية الى " القاع" هو " اللعب بالافكار والتحول الوقح من النقيض الى النقيض". بتعبير أدق، ان احد ابرز اسباب تدهور الفكر القومي العربي اصراره على " الاحادية الفكرية"، ففي خمسينيات القرن العشرين، عدّ الوحدة العربية هي "الحل السحري" لمشاكل الامة العربية، وبعد انفصال الوحدة بين مصر وسوريا عام 1961، رأى ان " الاشتراكية" هي "المفتاح الوحيد" للحل، وبعد نكبة العرب عام 1967 رأى ان " الحل السحري يكمن في الديمقراطية"، وقد سمى وميض هذا الانتقال من نقيض الى نقيض "بالمهزلة" و "الموضة"، وهو بحد ذاته، يعبر عن عجز الفكر العربي في الخوض في اعماق المسائل التي تعاني منها الامة العربية، واصبح عاجزاً عن حل معضلاتها ومتخلفاًعن حركة الجماهير، او على الاقل غير قادر على قيادتها وتبصيرها بآفاق المستقبل". ومن اجل تجاوز محنة الفكر العربي، فلابد من " ايجاد ترابط جدلي بين قضايا الوحدة والتنمية والتحرر والعدالة لاقامة الديمقراطية السياسية"()، اي يجب ان تسير التنمية بوتيرة واحدة على جميع الصعد، سياسياً واقتصادياً وثقافيا . بتعبير ادق، انه مهما بلغت الدول من انجازات اقتصادية واجتماعية، تبقى من دون فائدة، اذا لم ترافقها انجازات سياسية في مجال التعددية الحزبية وحرية الصحافة وحرية الفكر والتعبير. لذا طالب وميض باصرار كبير بان تكون مؤسسات المجتمع المدني من نقابات وجمعيات مهنية مستقلة استقلالاً تاما عن الحكومات . لنقرأ معاً ماذا قال وميض بهذا الشأن:

" اما عن المجتمع المدني فيؤسفني باني لا ارى مؤسساته الجادة، فاين هو القضاء العادل والمستقل؟، واين هي الصحافة العربية النيرة وغير الخاضعة لهذه الحكومة او تلك ولا القابضة من هذه الدولة او ذاك الثري؟، واين هي اتحادات العمال والمحامين والاطباء. وسائر المهن على امتداد الوطن العربي؟ . بداهة انها موجودة، ولكن باللافتات فقط وليس بالاستقلال عن المؤسسة الرسمية . وذات الكلام ينطبق بهذه الدرجة او تلك على سائر المؤسسات التي يفترض فيها ان تشكل اركان المجتمع المدني واسسه الحقيقية".

ومن اجل ان تبقى القومية العربية حية ومتجددة، فلابد من تحقيق الوجود التاريخي للامة العربية، وذلك عن طريق الوحدة العربية كونها تمثل "السلاح الوحيد لتحطيم استراتيجية الاستعمار العالمي وتصفية ادران المجتمع القديم" بعبارة اخرى، ان الوحدة العربية هي "الاستراتيجية الوحيدة لهدم وكنس الاستعمار العالمي من ربوع الوطن العربي"().

وان الوحدة العربية لاتتحقق الا " بتحالف قوى الشعب العاملة"()، والمقصود بقوى الشعب العاملة عمال وفلاحين وجنود ومثقفين ثوريين . وقد حذر وميض من البرجوازية العربية كونها تمثل، حسب وجهة نظره، عائقاً لتحقيق الوحدة العربية، كونها (البرجوازية) تمثل السند القوي للاقطاع، فهي إحدى الشرائح المالية للاخير، لذا ستبقى "عاجزة عن خوض معركة جديدة وجذرية ضد الاقطاع في الريف، وبالتالي فهي عاجزة عن انجاز الوحدة العربية".

وفي الواقع، ان البرجوازية العربية كانت طبقة "مغلوبة على امرها بسبب" سطوة السادة الاقطاعيين" عليها طبقاً لما جاء في دراسة رصينة كرست اساساً عن الطبقات الاجتماعية(). بتعبير ادق، ان البرجوازية العربية " نمت في رحم الاقطاع"، فاصبحت " منتضدة وممتزجة معه"، لذا ظلت هذه الطبقة في" ذاتها، ولم تتحول الى طبقة لذاتها"(). من هذا المنطلق، ظلت البرجوازية العربية تسعى جاهدة للحفاظ على الوضع القائم، فهي كانت على الدوام ترتجف من اي تغيير في الوضع القائم خشية من فقدان مصالحها وامتيازاتها، وهي بهذا الحال كانت على الدوام تفكر بنفسها فقط، فهي انانية ولم تمتلك " نكران الذات" ابداً. ينبغي ان نشير هنا، الى حقيقة مهمة، هي ان وميضاً لم تكن له اية عقدة مع البرجوازية كمنظومة فكرية، فهي ليست رديفة لكلمة" مستغل"، كما يعتقد كثيرون، فهناك انواع منها، ولاسيما البرجوازية الوطنية قد حققت انجازات كبيرة.

شعار الوحدة

وفي الواقع، ان وميضاً لم يعرض شعار الوحدة العربية عرضاً عاطفياً، بل عرضه عرضاً علمياً وفكرياً. فعلى الصعيد العلمي، كان وميض حريصاً على تثقيف الاجيال بعامة، وطلبة العلم تحديداً بخطورة هيمنة الامبرالية الاستعمارية على الامة العربية، تلك الهيمنة التي خلفت لنا تركة التجزئة وتخلف الاوضاع الاجتماعية الاقتصادية". فضلا عن ذلك، فان"الامبريالية ما انفكت تلغم سبيل وحدة الامة العربية وتصدها عن آمالها"()، الامر الذي يدفعنا أن نطالب الجهات المسؤولة لكي تسعى سعياً جاداً بادخال مادة " الاستعمار" كمنهج اساسي لطلبة العلوم الانسانية في مراحل البكالوريوس والماجستير والدكتوراه، فالظاهرة الاستعمارية " ما زالت قائمة من حيث الجوهر رغم تلون مسالكها وصيغها في الاستغلال".

اما على الصعيد الفكري، فقد ربط وميض شعار الوحدة العربية بالديمقراطية ربطاً جدلياً، فاذا ما تحققت الوحدة العربية تنتعش الديمقراطية، واذا ما تجزأت الامة العربية فان الديمقراطية والحرية تموت لا محال، الامر الذي يؤكد ومن دون شك، ان مفهوم الديمقراطية في فكر وميض ليس ترفاً فكرياً، او شعاراً كان يرفعه ليتباهى به، بل كان مفهوماً واقعياً وعملياً. ننقل نصاً ما قاله وميض من كلام ذي مغزى فكري عميق على هذا الموضوع تحديداً:

"الجوهر الديمقراطي ليس بـ(حقي في ابداء (رأيي) فقط، فهذه قضية بديهية، وانما هو حق غيري في ابداء رأيه".

ومن اجل ترجمة هذا الكلام سلوكاً وتصرفاً، حدد وميض جوهر الديمقراطية بالتعددية التي يقصد بها ان تجمع الامة على برنامج معين لا تتجاوزه يسارا وبميناً، إذ بدون ذلك " لن تتحقق الديمقراطية". بتعبير اوضح انه بدون "اجماع نظرة مشتركة للمشروع النهضوي"، فان ذلك سيؤدي الى انتشار " الفساد بشكل لم يسبق له مثيل"، والى انتشار" رضوخ المثقفين وتهالكهم على المنصب والاستيزار".

ثمة حقيقة تاريخية،الا وهي، ان تجارب التاريخ اكدت ان لا ديمقراطية بدون وجود احزاب، الا انه مما يؤسف عليه حقاً، ان الاجيال فقدت ثقتها بالاحزاب. لنتمعن كثيراً في قول وميض بهذا الشان:

" انا في الحقيقة، ومن علاقاتي مع الجيل الجديد، من اطفالي الى طلابي، اشعر انهم لا يثقون في الاحزاب السياسية على الاطلاق، وانا معهم. فهي احزاب جاءتنا الحديث في عامي 1993 و 1998)، لان هذه الحكومة يقصد بها (حكومة صدام حسين) هي التي انفصلت عن الكرد عام 1990، وليس الكرد هم الذين انفصلوا، وهذا ما سيترك اثاراً خطيرة على مستقبل الاخوة العربية الكردية. وقد حصل ذلك بالفعل، فان الجيل الذي ولد في كردستان عام 1990 لم يعرف اللغة العربية بتاتاً، وهذا ما ولد صعوبة كبيرة لدى السواح العرب في كردستان في التفاهم مع هذا الجيل، مما ادى الى افساد متعة السفر على اقل تقدير!.

ينبغي ان نشير هنا الى، ان شخصيات وطنية، كان من ضمنها استاذنا الدكتور وميض قد وجهوا نداءً الى الرأي العام العراقي عام 1992 دعَوا فيه إلى ان الحل الوحيد للقضية الكردية هو الحوار لان ذلك " سيضع حداً لافتعال الشقاق وسيعزز الحكم الذاتي لكردستان العراق، ويفتح الطريق امام تحولات ديمقراطية في كافة ارجاء العراق". وختم

جنود عراقيون في حرب شمال العراق

سعدون حمادي

صبحي عبد الحميد